الفرحة الناقصة

كلما تأملت العلاقات في حياتي، وجدت لكل علاقة «تيمة» تصفها وتحددها، وكأنها لعنة أُطلقت عليها في ليلة مقمرة. هناك في حياتي علاقة تيمتها «الفضيحة»، وهناك علاقة أخرى تيمتها «الدعم» وعلاقة تيمتها «مع مراعاة فروق التوقيت» وهكذا. أما «آدم»، فالتيمة الخاصة بنا هي «الفرحة الناقصة». في بدايتها كان ينقصها الزوج والأب، وكأن قراري هذا أطلق علينا لعنة هذه التيمة. بدأت ألاحظ أنني كلما اشتريت شيئًا له، وكنت حقًّا فرحة به، أجد به عطلًا ما أو كسرًا ما، عطل أو كسر لا يدعو للتخلص منه ولكنه يكفي لإفساد فرحتي به.

مثلًا، بعمر عام وشهرين، اشتريت لـ «آدم» مشاية، على الرغم من رفضي التام لها وتحذير الكتب العلمية منها. اشتريتها لأشجعه على المشي والوقوف لأنه حتى هذا الوقت لم يكن يقف أو يمشي. اشتريت المشاية وكان «آدم» سعيدًا بها! أطلقت عليها اسم «عربية كوكو»! ما إن وضعتها على الأرض، حتى لاحظت وجود كسر بأحد أزرارها. فقدت زهوتها وضاعت بهجتها.

أما «آدم»، فقد كان التأخر ملازمًا له، تأخر في الانقلاب من جنبٍ إلى آخر، في رفع جذعه مثل الطفلة في كتاب د. «سيرز»، في الجلوس مستقلًّا، في الضحك بصوتٍ عالٍ، في الوقوف، في الزحف، في المشي، في الجري، في القفز، وفي الكلام! كان يتأخر ولكنه كان يصل في وقته الخاص. كان يصل متأخرًا لدرجة أنني لا أفرح الفرحة الكاملة، كانت دائمًا فرحة حزينة منقوصة.

خطا «آدم» أولى خطواته المستقلة عندما أتم 18 شهرًا. كانت خطواته مهزوزة كسولة بطيئة. كان ما زال طفلًا صعبًا. هكذا وصفه د. «سيرز» في كتابه. الطفل الصعب هو طفل باكٍ صارخ، لا يهدأ ولا يستكين، ولا يسمح لكِ بالالتفات بعيدًا عنه. طفل يحتل جسدك وعقلك ويسلبك حياتك ليخضعك لاحتياجاته. يحتاج الحضن والـ «بزوز» واللعب والانتباه له طوال الوقت. وعدني د. «سيرز» أنني سأجد في نهاية المطاف طفلًا حانيًا حساسًا مبدعًا محبًّا – فقط إذا خضعت لمطالبه المشروعة!

تعبت! نعم! تعبت وافتقدت حياتي وأصدقائي والنوم الهنيء. قررت أنه حان الوقت لأتخلص من طفلي الصعب المزعج المؤلم، وأدخله حضانة! لم أضحك على نفسي وأدعي أنني سوف أدخله الحضانة ليلعب ويتعلم وينبسط، أنا أعلم، في أعماقي، أنها كلها أكاذيب. اخترت حضانة غالية جدًّا، بها أربعة أطفال وسيكون هو خامسهم، يشرف على الأطفال ثلاث مدرسات ودادة، والمكان به ألعاب لطيفة. أخذته وذهبت لنرى المكان عن قرب. وقفت أراقب الأطفال وسرحت بخيالي.

ها هو «آدم»، يجلس في ركن بعيد يلعب بلعبة ويبكي عدم وجودي. رأيت طفلًا وقد مشى نحوه وأخذ لعبته. «آدم» بالكاد يمكنه الوقوف والسير بضع خطوات! لن يجري خلفه ويأخذ لعبته. «آدم» لا يتكلم نهائيًّا! لن يقول له: «لا هذه لعبتي!» سوف يبكي! هل سيتحول مع الوقت لطفل عنيف يعض ويضرب ليعوض نقصه؟ هل سيتحول إلى طفل صارخ فاقد الثقة لأنه مقهور؟

سوف تتجاهله المدرسات لأنه لا يفعل ما يفعله الأطفال. من ستترك عملها وتكرس وقتها له، تأخذه ليمشي، تلاعبه بالكرة لتشجعه على الجري، تحدثه وتعلمه الكلمات عله

ينطق، تحضنه، تضحكه، ترضعه وقتما يريد مثلما أفعل أنا؟ نظرت لطفلي الحبيب وشعرت أنه يعرف نيتي. نظر إليَّ وكأنه يرجوني ألا أتخلص منه. شعرت أنه يذكرني بوعودي له حينما كان جنينًا، حينما كنت أقول له بهذا الصوت الذي لا يسمعه سوى الأم وجنينها: «نحن. أنا وأنت. ليس لأحدنا سوى الآخر. تمسك بي جيدًا. انغرس بداخلي أكثر وأقوى. لا تتركني. سأتمسك بك. سأدافع عنك. سأحميك. لن أتركك».